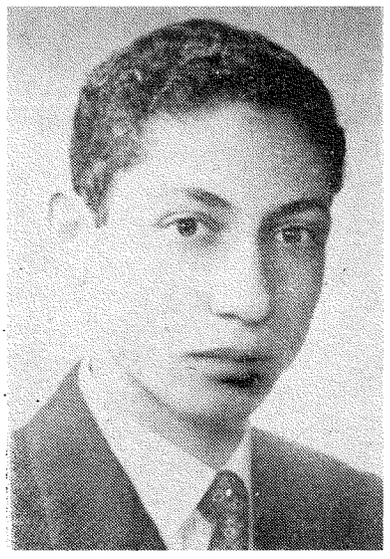

أحلام الشاعر القديم والتزاماته

بقلم صبري حافظ

قبل ان نلج عالم الفارس القديم ، علينا ان نتتبع في لمحة سريعة تطور الابداع الشعري عند صلاح عبد الصبور منذ «الناس في بلادي». فمما لا شك فيه ان انتاج الشاعر الان ليس مقطوع الصلة بانتاجه فيما مضى ، وان تمزق كثير من الخيوط التي تربط (احلام الفارس القديم) بـ (الناس في بلادي) فان هذا التمزق ليس سوى النتيجة الحتمية لتطور رؤية الشاعر ، وتمكنه من ناصية الابداع الشعري . كما انه نتيجة طبيعية للتباين الحضاري بين المرحلتين التاريخيتين اللتين عبر عنهما الشاعر في ديوانيه . غير ان ما اعنيه بعدم انقطاع الصلة بين الديوانين متعلق بالرؤية وبمنهج الشاعر التعبيري .

وتعد (رحلة في الليل) .. اولى قصائد الديوان الاول مدخلا طبيعيا لشعر صلاح عبد الصبور باكمله ... والذي يلج هذا الباب تتكون لديه لحظة ولوجه فكرة مسبقة عن عالم عبد الصبور الشعري . غير انه وعلى امتداد الرحلة ما يلبث الخواء ان ينمو على جانبي هذه الفكرة حتى يلتهمها تماما حينما تصل بالمسافر الخطى الى ديوان (اقول لكم) ... عند هذا الحد تنتهي تماما كل الافكار والتصورات الحدسية التي كونها القارىء عن شعر صلاح . لتبدأ مرحلة اخرى تحتاج الى ادوات تذوقية شديدة التباين عن تلك الادوات التي تستلزمها خطوات الرحلة الاولى .. وشديدة الغرابة في الان نفسه عن العالم الشعري الذي تلوح ابعاده منذ ان تجوس خطوات المسافر الاولى مدخل الديوان الاول . بل لن يصل به الامر الى حد الحاجة الى ادوات تذوقية جديدة فحسب ... اذ لا بد ان يقف به خارج اطار الشعر ، ليقذفه في قلب هاوية التجريد الاليوتية . وبه يمتاح عالم الشعر والواقع في ان ليتركه يتمزق على نتوءات الوهم والتجريد . صحيح ان صلاحا في (اقول لكم) يحاول التفكير .. ولكنه ذلك التفكير الذي ينطبق عليه ما قاله الدكتور جونسون عن جراي .. « انه يفكر في صدق .. ولكنه تفكير باهت » .. وهو يحاول ايضا ان يبدو امام القارىء كشاعر عميق الثقافة قادر على تجاوز الارهاصة الاليوتية التي ترى من الصعب على الشاعر الاستمرار بعد الخامسة والعشرين دون ان يتسلح بفيض من الثقافة والمعرفة بشتى ميثولوجيات العالم واشعاره ... دون ان يعلم ان قمة الثقافة تتجلى في البساطة لا في التعقيد .

ولا احب هنا ان اورد الجزئيات التفصيلية لهذه الاحكام ... ولا اريد ايضا ان اقدم المبررات التي تجعلني اعتبر (اقول لكم) سقطة في منهج عبد الصبور الشعري ونغمة ناشزة في عالمه ... فهذا موضوع طويل لو استسلمنا لاغرائه لخرجنا عن موضوع الدراسة . لكن الذي اريد ان اؤكده هنا ان المسافر سوف ينتشي حتما عندما ترود خطواته عالم الديوان الاخير .. لان (احلام الفارس القديم) هو الامتداد المتطور لـ (الناس في بلادي) ، اذ لا نعثر فيه فحسب على النمو التطوري لاغلب اساليب الشاعر في بناء القصيدة .. او على تعمق فهم الشاعر للواقع وللفن واتساع رؤيته لهما . بل نتصيد عبره ايضا التعبير الاكثر نضجا عن المرحلة الحضارية التي صدر عنها ، بكل ما ترتعش به وجدانات هذه المرحلة من افكار واحاسيس ، ونلمس عبره التجسيد الفني الخصب لكل هموم الفترة التي صدر عنها ـ مطالع الستينات من هذا القرن ـ والتسجيل الدقيق لاهم ملامحها . كل هذا من خلال منهج تعبيري ان اختلف من ناحية النضج عن المنهج الذي على منواله نسج الشاعر في (الناس في بلادي) الا انه لا يتناقض معه من الناحية النوعية ، كما سنجد ايضا ان الشاعر هنا ، ولانه اعمق ولاء للشعر واكثر امانة مع الواقع الذي صدر عنه وابعد فهما لجوهر حالته الحضارية . كما في الان نفسه عميق الامانة لاتجاهه الشعري ومنهجه في الرؤية ، بل لن نجده امينا مع نفسه ومع اتجاهه الشعري في اي من ديوانيه السابقين قدر امانته معهما هنا ... ولقد انعكست هذه المسألة في ظاهرة شديدة البساطة وان كانت عميقة الدلالة ... الا وهي عدم وجود قصيدة واحدة من الشعر القديم في الديوان باكمله بينما نعثر على اكثر من واحدة منه في كلا الديوانين السابقين . صحيح انه وعبر التجربة الطويلة انكسر تخوف الشاعر من اصدار ديوان كامل من الشعر الحديث وخال تماما من بيت قديم واحد ، وصحيح ايضا ان تنامي مؤازرة القراء لهذا الشعر واهتمامهم به قد ساهم الى حد كبير في ترسيخ قدمه وبالتالي في توسيع رقعة قرائه ومبدعيه . خاصة بعد ان تكاثرت الكتابات الجيدة لاصحاب هذا الاتجاه مثل بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري في العراق ومحمد عفيفي مطر ومحمد ابراهيم ابو سنة وصلاح عبد الصبور في مصر وفواز عيد ونزار قباني في سوريا وعلي احمد سعيد (ادونيس) وخليل حاوي وسلمى الخضراء الجيوسي في لبنان ... بالشكل الذي اتاح للكثيرين استمرار محاولة كتابة هذا الشعر وتسلق ساقه التي تصلبت على طول السنوات العشر الاخيرة . الا ان المبرر الاهم في اعتقادي لهذه الظاهرة العميقة الدلالة هو ان صلاحا قد تمثل بصورة عميقة في هذا الديوان جوهر اللحظة الحضارية التي صدر عنها .. ومن ثم كان محالا ان يقدم هذا التمثل او حتى اقله في قالب الشعر التقليدي ، والا لكان هراء القول بضرورة تجديد الشكل لاستيعاب المضمون الجديد .. وبوحدة الشكل والمضمون .. وغيرها من البديهيات .

كما ان صلاحا قد استفاد بحق من ثبات قدم الشعر الجديد في ارض الواقع ... وتكوينه ارضا تراثية ... ان كانت ما تزال ضيقة الا انها قد استطاعت ان تتيح للكثيرين الوقوف فوقها وتوسيع رقعتها ... وقد سبق لصلاح ان قال عن ديوانه الاول « ان صناعة الشعر لمن يجيء بعدنا ستكون امتع واروح ، انما نحن نمهد الطريق ونشيد تراثا » .. وقد استفاد هو نفسه من هذا التراث بحق ، وحاول ان يقف فوقه ... يمتصه ويضيف اليه ... يثريه ويتفوق عليه .. ومن ثم نحس بان صناعة الشعر عند شاعرنا في هذا الديوان امتع واروح وبالتالي اكثر بساطة واقترابا من جوهر الشعر ، ساعد على ذلك فهم الشاعر

الواضح للارض التراثية التي يقف عليها وامكانياتها ، وايضا للارض المجتمعية التي يصدر عنها وابعادها .

والشاعر هنا اكثر تعبيرا عن العالم العام منه في (اقول لكم) .. برغم احتفاء قصائد هذه المجموعة بالجوانب الذاتية وجنوح اغلب قصائد (اقول لكم) الى تناول المجردات والامعان في العموميات مبتعدة بذلك عن جوهر الشعر . وعمق اهتمام الشاعر في هذا الديوان بمعالجة الهموم الذاتية ، هو الذي اقترب بشعره من جوهر التعبير عن العالم العام ، لان الخاص في الشعر هو الطريق السليم الى العام . ولا بد هنا من ان نسجل للشاعر عمق اهتمامه بالجوانب الذاتية برغم جنوح النقد الحديث الى ان يسجل وباستمرار ، نفورا غلافيا من الشعر الغنائي والقصائد الذاتية ، خاصة وقد اتخم وجدان القارىء العربي على مر عصور طويلة بهذا النمط من الشعر ، فبدا واضحا ، عبر التناقض المستمر لهذا الشعر خوف الشعراء من التعبير عن العواطف الذاتية المباشرة شعرا . ويرجع هذا في اعتقادي الى محاولة الشعر الحديث تخطي مفهوم التناول الشعري الساذج للهموم الذاتية ، والذي تبلور عبر مدرستي ابوللو والديوان وفي كل اشعار الرومانسيين من جهة . والى المبدأ النقدي المتعسف الذي ظل ينادي بضرورة الموضوعية في الشعر باعتبارها نقيضا للذاتية وليس امتدادا لها . بينما الحقيقة الا تناقض بين الاثنين في الشعر خاصة ... اذ يستطيع الشاعر ان يكون شديد الموضوعية من خلال تعبيره الصادق والعميق عن تجاربه الذاتية والمرئية بطريقة ارحب واعمق .. « فعندما يكرس الشاعر نفسه لعالمه الخاص ، لعالمه هو الداخلي الخاص ، لعالم عواطفه الخاصة ولمحاته الخاصة ، وافراحه ومخاوفه واماله المفزعة ويأسه القانط ، فان صوته .. الصوت الذي يتحدث به عما يراه ويسمعه ويلمسه في ذلك العالم القريب البعيد ، يكون اكثر اختراقا لقصائده واكثر اهمية لمعناها من صوت الشاعر في قصائد تعبر عن العالم العام او عالم الطبيعة ، او اي عالم اخر في الخارج .. ان شاعر العالم الخاص ليس مراقبا فحسب ، بل هو ايضا ممثل في المشهد الذي يرقبه .. والصوت الذي يتحدث في قصائده انما هو صوته كممثل ـ كمعان لهذا العذاب ومغتبط بهذا الفرح ـ الى جانب صوته ايضا كشاعر » (١) .

وقد استطاع صلاح عبد الصبور في هذا الديوان ان يكون الاثنين معا .. ان يسمعنا صوته كشاعر وكممثل في المشهد الدامي في آن واحد . اذ عانقت الفجيعة الذاتية المدعمة بالقدرة الفنية الوجه العام للمأساة الاجتماعية .. واستطاع الشاعر ان يصل بنا الى العام من خلال الخاص بل والشديد الخصوصية . وليس هذا المنهج جديدا على الشعر ـ نجده في قصائد صينية من ٥٠٠٠ سنة ق.م. ـ ولا حتى هو على شاعرنا بجديد . اذ نعثر عليه في كثير من قصائد الديوان الاول وفي قليل من قصائد الثاني . الا ان الذي يمكننا ان نضيفه هنا ، هو ان حذق صلاح عبد الصبور في استعمال هذا المنهج في ديوانه الاخير، قد بلغ درجة من النضج والشفافية . اذ تمكن في اكثر القصائد من تحقيق التلاحم الحقيقي بين العالمين الخاص والعام من خلال وقوفه (كممثل) في المكان المحوري من خشبة (المسرح) والتقاطه باحساس (شاعر) ورهافته كل ما تصبه الروافد الاجتماعية للتجربة في اعماقه وكل ما تفجره فيها من رؤى وايحاءات . ولا يعني هذا ان صلاحا في هذا الديوان قد استكمل عدته تماما ولا ينقصه سوى ان ينصب اميرا للشعر وان يوضع الصولجان في يده . كما لا يعني هذا انه قد اصبح شاعرا ثوريا عميق الرؤية شاملها . ولا انه قد حقق تماما عبر ديوانه ذاك التزاوج الحقيقي بين الفن وقضايا الشعب الاساسية او قدم الواقع شعرا عبر حدقتي الجماهير . لكنه يعني فقط ان صلاحا قد حقق اقترابا عميقا من جوهر اللحظة الحضارية التي عاشتها بلادنا في الفترة التي صدر عنها ديوانه ، وهذا الاقتراب العميق هو بلا شك بداية الالتصاق الحقيقي بقضايا الشعب واحتضان رؤيته لها . كما عبر بشكل اساسي عن مأساة المثقف الذي يعانق العجز ـ وليد غياب حرية الممارسة المنفتحة لدوره الفعال فوق وجه الواقع ـ وضوح رؤيته لابعاد هذا الواقع ، ومن ثم يقع به في براثن التمزق الحاد ومهاويه . ولهذا فاننا نعثر في الديوان على حزن مكثف وشديد التركيز . وعلى تخوف راعب من المدينة ، وهو نغمة جديدة على شعر صلاح عبد الصبور .. تعانقها نغمات اخرى تنطلق عبر رغبته الحادة في الرجوع الى فردوس البساطة الانسانية المفقود . وتتجاوب مع اصداء رعب الشاعر من الصمت الذي على صخرته الجرانيتية تهشمت كل احلامه وتكسرت قوادم امانيه. فمزق اعماق الشاعر احساس حاد بالاغتراب والعزلة . ومن ثم لم يجد طريقا سوى التصوف او دفن همومه في حب ممزق ايضا ، لانه ابن هذا الزمان المر ووليده . وليست كل هذه الموضوعات التي ركز عليها الشاعر اهتمامه وليدة نضجه التعبيري فحسب ، ولكنها ايضا ابنة المواضعات الجديدة التي يعيشها الشاعر ، فالوجدان الاجتماعي ليس الا انعكاسا للوجود الاجتماعي .

وانا لا انكر ابدا ان ثمة تغيرات قد حدثت على صعيد الوجود الاجتماعي في بلادي . تغيرات كبيرة وجذرية ، بل انني اعتقد ان حدوث هذه التغيرات هو الذي فرض التغير على الفن . فلكل فترة تاريخية ذات سمات اجتماعية وحضارية معينة مصطلحها الفني داخل كل الفنون التعبيرية . وفي شعر الشعر الحديث على وجه التحديد ، حدثت تغيرات داخل مصطلحه الفني . فليس الشعر الذي يكتب في اوائل الستينات تماما من الناحية الفنية ومن ناحية القضايا التي يطرحها ونوعية رؤيته لها ومعالجته اياها مثل ذاك ـ الحديث ايضا ـ الذي كان يكتب في مطالع الخمسينات . فالتغير الذي حدث من اسبابه دون شك التغير الاجتماعي . وتنامي احساس الشاعر بمسئوليته التي عمق منها تزايد جمهور هذا الشعر وتعاظم الاهتمام به . وتكوين اساس شعري حديث شبه راسخ يساعد على النمو والاجادة ، ويشكل ارضا تراثية يستطيع الشاعر الحديث ان يتحرك من فوقها في اطمئنان وثقة. واهتمام الشاعر بثقافته الى حد بعيد ، وتعميق ابعاد رؤيته للواقع وفهمه لقضاياه ، وغير ذلك من الاسباب التي لا نريد ان نستسلم لاغراءات تقصيها هنا . بل سنتركها لنحاول ان نتصيد ملامح هذا التغير عبر الرحلة التذوقية والنقدية لقصائد الديوان .

(١) ـ قرابين .. في هيكل الحزن

في المفتتح الذي لا يتجاوز عشرة ابيات نعثر على كلمات عديدة تشي من البداية بمأساوية يقابلنا على طول الطريق .. كلمات مثل .. « لم تثمر الاشجار .. اردأ الطعام .. فقيرة .. مقفرة .. خافت ..

(١) ارشيبالد ماكليش (الشعر والتجربة) ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، ص ١١٥ .

صدر حديثا ديوان :

مرفأ الذكريات

للشاعر هلال ناجي

يطلب من
دار الاندلس ـ بيروت
المكتبة العصرية ـ بغداد

شحيح .. وحيدة .. قديمة .. معروفة .. دموع .. حزين « ومن ثم يكون طبيعيا أن تعانق الحسرةكلمات الشاعر في اخر ابيات هذا المفتتح الصغير فيصرخ .. « من اين آتي بالكلام الفرح ؟ » .. اذ لا يكفيه ان يقدم في البداية الاسف لعدم اثمار الاشجار ، ولا لمجيئه باردأ الطعام المقتطع من قلبه الحزين ..

معذرة يا صحبتي ، لم تثمر الاشجار هذا العام
فجئتكم باردأ الطعام

وهو ليس بخيلا كما قد يتبادر الى الذهن لأول وهلة ، ولكن خزائنه فقيرة وحقول حنطته مقفرة . ولان الشعر نبوة وخلق ورؤيا وبحث دائم عن الحقيقة حيث الانسان هو مركز العالم ووجهه كل بحث عنه ، لذلك لا يزدهر الشعر الا في مناخ الحرية الكاملة .. وليست كل مأساة شاعرنا مرتوية من الشح والاقفار والجدب ، ولكنها تنهل ايضا من خفوت الضوء « معذرة يا صحبتي فالضوء خافت شحيح » .. الذي يذكرنا بالضوء الخافت لمصباح ديوجين المنقب في وضح النهار عن الانسان . ويبدو ان الشاعر يريد ان يلقي على خفوت الضوء وشحه كل المسئولية ـ وليس على عجزه هو ـ ومن ثم يكون طبيعيا ان يجيء في نهاية المطاف باردأ الطعام . خاصة وان الشعر لا يزدهر الا في مناخ الحرية الكاملة كما ذكرنا . حيث يتوافر الضوء ويتمكن الشاعر من معاقرة تجربته بوضوح واطمئنان . غير اني وبرغم تقديري لكل هذا اعتقد ان دور الشاعر اعمق من مجرد القاء العبء على كاهل احد مواضعات الواقع الاجتماعي . فالشاعر ـ حسب تعبير عزيز علي ادونيس ـ حجة ضد العصر ، ومن ثم يكون عليه دور اعمق بكثير من مجرد تبرير عجزه وجهامة عالمه. دور ينحت ابعاده من طبيعة هذا التعريف نفسه ، ومن ضرورة ان يكشف النقاب عن كل ما في العصر من خواء وزيف وتفسخ ... صحيح أن مجرد حديث الشاعر عن خفوت الضوء وشحه ، جزء من اضطلاعه بهذا الدور . غير ان الذي انكره هنا هو الجانب التسليمي في الموضوع . فقد لاحت عبر ابيات المفتتح رنة تسليمية وعجزية خافتة .. اعلنت عن نفسها من خلال الطابع التبريري الذي تنضح به ابياته . وسوف تزداد هذه النغمة وضوحا وارتفاعا في قصائد الديوان نفسه . وقد تكون التسليمية والعجزية من سمات الفلسفة التي يعتنقها صلاح على الصعيد الفكري ... الا ان هذه الفلسفة تتناقض مع طبيعة الشعر ذاته ، بل قد تنحرف به عن جوهره من حيث هو اجتراح للمعجزة وتعبير عن المستحيل كما يقول جورج لومسون .

ومن هنا فان المفتتح في اعتقادي ليس تبريرا لانهمار شلالات الاحزان في اغلب صفحات الديوان ، بقدر ما هو شهادة الفنان على عقم هذا الواقع الذي ترتوي منه تجاربه .. ولا اريد ان اصل توا الى مناقشة هذا الواقع والتهليل لانجازاته الهائلة كما فعل كثيرون. ذلك لان الواقع بالمصطلح الفني غير الواقع بالمصطلح الرقمي او الاقتصادي.. لان الاول اكثر شمولية من الاخير .. انه الواقع مرئي بشكل فني ، او هو الواقع عبر حدقتي الفنان ومُضافا اليه فهمه لابعاده ورؤيته لقضاياه . ولان الوصول توا الى التهليل لانجازات الواقع يعني وضع العمل الفني في قفص الاتهام وليس على بساط الفهم والتذوق .وكل الذي يهمني ازاء فنان يكثف الواقع احزانا ، هو مدى صدقه فنيا في التعبير عن هذه الاحزان ومدى قدرته على الاقناع بها . وايضا الى اي مدى كان شعره تعبيرا عن الحالة الحضارية التي صدر عنها ؟ ...وهل تمكن الشاعر من تحقيق التزاوج والالتحام العميق بين همومه الذاتية وهموم المجتمع الذي يعيش فيه ويحمل داخل شعره احزانه ؟

هم الشاعر الاكبر في هذا الديوان هو الحزن .. الاجماع منعقد على هذا .. لكن الحزن في ديوان صلاح عبد الصبور الاخير هذا ، ليس طفلا مدللا يدغدغه الشاعر بالكلمات الرقيقة ويناغيه بالاغنيات كما تفعل نازك الملائكة .. ولكنه حزن ثقيل معذب ، من اسباب عديدة يرتوي .. من الغربة والحب العقيم والصمت وقوادم الاحلام المتكسرة والخوف والليل السادر ، ينهل ثم ينهض عملاقا جرانيتي السحنة كئيبها . يهب فجأة وسط اللحظات القليلة التي يختلسها الشاعر من الاسى ليداعب فيها اشراقات الحياة . فيطفىء اطلالات البهجة ويوقظ الشاعر على جهامة واقعه . ويلوح الحزن في هذا الديوان كائنا مستقلا عن الشاعر وله شخصيته المميزة ، يغفو قليلا ولكنه ما يلبث ان يستيقظ من جديد .. ابدا لا يموت ولا يتلاشى ، فالعروق التي تضخ الحياة في شرايينه لم تذبل بعد . ولذا فاننا نعثر عليه كلما اطل بقامته العملاقة وسحنته الجرانيتية الكئيبة وسط قصائد الديوان ، حزنا صادقا وعميقا ومكثفا لكل احزان العمر وتعاساته ..

حزني ثقيل فادح هذا المساء
كأنه عذاب مصفدين في السعير
حزني غريب الابوين
لانه تكون ابن لحظة مفاجئه
ما مخضته بطن
اراه فجأة اذا يمتد وسط ضحكتي
مكتمل الخلقة موفور البدن
كأنه استيقظ من تحت الركام
بعد سبات في الدهور

ولانه تكثيف لكل احزان العمر فانه يولد فجأة وسط نقيضه الضحكة ، مكتمل الخلقة وموفور البدن ، فيستل باصابعه الجليدية كل اشراقات السعادة التي تطل اجنتها مع الضحكات .. ومن هنا فليس حزن الشاعر انفعالا مؤقتا يولد تدريجيا كرد فعل آني لمثير ما ، ولكنه حزن فلسفي « حزني غريب الابوين » ، او بمعنى اخر هو القالب الانفعالي الذي تنصب فيه رؤية الشاعر لابعاد واقعه الداخلي والخارجي في آن ، فنجد انه بذلك ابن التزاوج الحيوي بين هموم الشاعر الذاتية ، وليدة المواضعات الحضارية التي يعيشها ، وبين صمت الواقع الذي يعمق من احساس الشاعر ـ الذي يتوحد عبر الديوان بالفارس القديم ـ بالاغتراب والعزلة .. انه حزن لم يعرفه الشاعر من قبل .. حزن غريب الابوين .. غامض .. مستوحش .. كئيب ..

لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء كالدخان
فيوقظ الحنين ، هل نرى صحابنا المسافرين
احبابنا المهاجرين
وهل يعود يومنا الذي مضى من رحلة الزمان ؟
ثم بلوت الحزن حين يلتوي كافعوان
فيعصر الفؤاد ثم يخنقه
وبعد لحظة من الاسار يعتقه
ثم بلوت الحزن حينما يفيض جدولا من اللهب
نملأ منها كأسنا ، ونحن نمضي في حدائق التذكرات
ثم يمر ليلنا الكئيب
ويشرق النهار باعثا من الممات
جذور فرحنا الجديب
لكن هذا الحزن مسخ غامض مستوحش غريب
فقل له يا رب ان يفارق الديار
لانني اريد ان اعيش في النهار

حزن الشاعر هنا تكثيف لكل الاحزان التي عركها من قبل ، ولكنه اكثر من حاصل جمع هذه الاحزان كلها .. فقد عاش الشاعر كافة انواع الحزن ، وعانق كافة اشكاله .. غياب الاحبة ، وافتقاد الاصحاب المسافرين ، والتأسي على الايام الضائعة ومعاقرة كؤوسه اللهبية المذاق في حدائق التذكرات الموحشة ... اعتصر الحزن باصابعه الافعوانية الفؤاد .. خنقه . كل هذه الاحزان عاشها الشاعر ، وهي مهما طالت الا انها كانت ما تلبث ان تنقضي .. تنقشع سحاباتها السوداء فيستيقظ النهار من تحت ركام الموت من جديد . غير ان هذا الحزن المسخ الغامض الكئيب ما زال في مكانه لا يريم ، ابدا ما مل

طول المكوث . وازاء هذاالحزن الغريب الكثيف والذي يعمق يوما بعد يوم من شوق الشاعر الى النهار ، ليس لدى الشاعر غير الابتهال الى الرب كي يأمره بمغادرة الديار ... ابتهال صادق وعميق واسيان ، ولكنه في الوقت نفسه يسفر عن عجز الشاعر ويسجله عليه .. ولا يملك الشاعر على طول الديوان سوى ان ينثر هذه الابتهالات حتى ..

يموت حزني العقيم ، حزني المقيم
يصافح الحياة وجهي الذي نضرته ببسمتك
امد نحو الشمس كفيا
وارفع العينين للنجوم

لكن الحزن في مكانه ابدا لا يبرحه ، والابتهالات لا تجدي فتيلا ، والشاعر نفسه يعترف بعجزه ، وبانه ليس اكثر من فارس قديم تحطمت سهامه وعدته ، وبات كفرسان الاساطير اليونانية المهزومين يعاقر احزانه قعيدا ..

لكنني يا فتنتي مجرب قعيد
على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامة
كون خلا من الوسامة
اكسبني التعتيم والجهامة
حين سقطت فوقه في مطلع الصبا

في مطلع الصبا سقط فارسنا ، اصابته حربة اخيل في الجولة الاولى فسقط .. ارتقى الشاعر السلم ، وفاز بالتنعمات ، فخرست الاوتار الرنانة ، وانزوت الكلمات الشجاعة في ركن سحيق مهجور ، وتقوقع الفارس بعيدا عن الاضواء ، انطوى في الظل يجتر الاحزان ويندب حظه .. وتحوم حوله بين لحظة واخرى دهشته مما آلت اليه حالته .. ينز القلب اسى ويكلم الصرخات ..

ماذا جرى للفارس الهمام ؟
انخلع القلب وولى هاربا بلا زمام
وانكسرت قوادم الاحلام
يا من يدل خطوتي على طريق الدمعة البريئه
يا من يدل خطوتي على طريق الضحكة البريئه
لك السلام .. لك السلام
اعطيك ما اعطتني الدنيا من التجريب والمهاره
لقاء يوم واحد من البكاره

ماذا جرى للفارس الهمام ؟ .. يلوب السؤال الداهش في الاعماق، ويعانق الاحلام الكسيحة التي تكسرت قوادمها ، والفرار الاليم من المعركة . فتنسج خيوطه الرغبة العميقة في استرداد البكارة التي فقدها والتي هو على استعداد للتخلي عن كل انتصاراته الزائفة من اجل يوم واحد من هذه البكارة المفقودة .. ومن استحالة البكارة التي في ظلها تورق الضحكة البريئة وتنهمر الدمعة البريئة .. انفعالات صافية خالصة حزنا كانت ام سعادة .. ومن صدق التوق اليها يولد الحزن كثيفا وعملاقا وكئيبا ، ويرافق عجز الفارس عن اجتياز هذا الموقف ويلتحم به . ولكن .. ترى هل يتمكن الفارس الذي اعتاد مناوشة الاعداء دوما .. والذي طالما صال وجال في ميدان القتال .. سلاحه الكلمات .. يحقق في كل لحظة انتصارا على الاعداء ، ويقف فوق الانتصارات الصغيرة ليجتازها ويحقق الانتصارات الكبيرة التي طالما حلم بها . هل يتمكن فارس كهذا من مصالحة الاعداء ، والتحول الى فارس قعيد يقتات الذكريات وهو لما يزل في مطلع الصبا ؟ .. الحقيقة ان حياة صلاح وشعره يجيبان معا على هذا السؤال . وتسفر الاجابة عن نفسها عبر احساس الشاعر بالوحدة والعزلة واغترابه .

(٢) ـ الاغتراب الكئيب .. والقلب المرتجف

احساس الشاعر بالغربة ، وبفقدان دوره المحوري في الواقع ، وعزلته عن القوى المحركة لمقدراته ، واحد من اثرى المنابع التي تنهل

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ

دار الاداب تقدم

الجزء الثاني من رائعة

قوة الاشياء

للكاتبة الوجودية العالمية

سيمون دو بوفوار

وفيه تواصل الكاتبة الفرنسية التي وصفت بانها اكبر اديبة وفيلسوفة في عصرنا الحديث مذكراتها الرائعة التي قرأها القراء العرب في « مذكرات فتاة عاقلة » و « انا وسارتر والحياة » والجزء الاول من « قوة الاشياء » . وهي تخصص فصولا برمتها عن احداث الجزائر وانعكاساتها على المثقفين الفرنسيين ، ولا سيما موقفها هي مع عدد من كبار الادباء في فرنسا وعلى رأسهم سارتر من « حرب الجزائر القذرة » وتأييدهم لنضال الشعب الجزائري ودفاعهم عن حقوقه ، وما لاقوا بسبب ذلك من اضطهاد في فرنسا وحرمان وتهديد بالقتل والاغتيال .

والى جانب ذلك فصول ممتعة عن رحلاتها وعلاقاتها بالادباء وتطور صلتها بشريك حياتها سارتر ، ويتخلل ذلك تأملات عميقة في الحياة والموت والمصير .

ترجمة عايدة مطرجي ادريس
مراجعة الدكتور سهيل ادريس

صدر حديثا

الثمن : ٦ ليرات لبنانية

احـلام الشاعر القديم

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦٣ ـ

منها احزانه الكثيفة والكئيبة . وهذا الاحساس ليس جديدا على عالم شاعرنا . اذ نعثر على بذوره في (اقول لكم) .. ويقدم (احـلام الفارس القديم) بدءا من عنوانه ذاته امتدادا لها .. فالفارس اذا مـا بدأ يحلم ، فقد فروسيته ، ومن ثم كان ضروريا ان يقترن القدم باسمه، فاجترار الاحلام شيمة الفرسان القدماء وميسم العاجزين عن تحقيقها مهما كان الثمن . وفارس صلاح عبد الصبور الحالم دوما بالبراءة ، المشوق توقا الى لحظة بكارة ، ينقلك توا الى فرسان القرون الوسطى المدلهين شوقا لمغامرة جديدة ، بكل ما تتضمنه هذه العصور الوسيطة من رومانسية حالمة . وفارس صلاح القديم وثيق الصلة بهؤلاء الفرسان، ومن ثم فهو يجتر بمشابرة سيزيفية احلامه عن البراءة،برغم ان الجزئيات التي نسجت خيوط مأساته ما زالت واضحة في رأسه الى حد ما . وهو يعاني من لحظة انسانية شديدة الثراء ، قد يفيق منها ـ وشاعرنا معه بالطبع فقد اكدنا توحدهما ـ مجتازا بذلك كل ما دمر حياتـه واحال ماضيه الى احلام وردية ينثر البخور في اروقتها . او قـد يسقط بعدها تماما ،ومن ثم لن يملك حتى مجرد هذا الوعي الجـزئي الذي ينوش ابعاد الاحداث التي نسجت خيوطها مأساته . ان حالتـه الراهنة تلك ترادف سكرات الموت . فاما ان يتغلب على الداء وينهض، واما ان يسقط تماما .. وهذا القلق الذي يعانيه فارسنا ، دلالة على انه لم يستسلم للهزيمة بعد ، وانه يحاول ، يقيده الصمت والخوف والندم ، اجتياز هذه الكبوة عله يواصل المسير من جديد .. والفارس القديم هنا قرين الشاعر نفسه ، لذلك قلت ان حياة الشاعر وشعره ينسجان معا خيوط هذه الغربة التي يرتجف قلبه في صقيعها الجليدي.

فقد كان صلاح في البداية فارسا صلبـا ، بشجاعـة الرواد ومثابرتهم نحت لنفسه طريقا فوق صخرة الشعر ، وبصلابتهم ذاد عنه. وكان واعيا الى درجة كبيرة بطبيعة الدور الذي يطلع به ، وفاهما لابعاد الواقع الذي يصدر عنه . ومن ثم لم يستهلك طاقاته الشعرية فـي الزاوية الرومانسية من التناقض مع المدينة كما فعل حجازي في (مدينة بلا قلب) .. ولكنه كما في (الناس في بلادي) واضح الرؤية قادر على ادراك قضية شعبه الاساسية آنذاك .. الصراع ضد الاوتوقراطية وضد الاستعمار . لذلك نعثر في الديوان على خطوات البداية الحقيقيـة والصادقة التي خطاها الشاعر على درب القضايا الانسانية الشعبية . ونجد فيه بوادر الاحتضان العميق لرؤية الشعب لهذه القضايا . كان الشاعر في (الناس في بلادي) فارسا منتشيا بالانتصارات المتوالية التي يحققها يوما بعد يوم .. على صعيد الفهم وعلى صعيد الابـداع الشعري . غير ان قسوة العدو ، وتخوف الشاعر وحرصه على ذاتـه، وقفا بشاعرنا على حافة مأزق مرير . توازن القوى وحدة هو الـذي استطاع ان يحتفظ بالشاعر واقفا على شفير هذه الحافة الجهنمية . وبدا عالم الفروسية كحلم فردوسي لم يتمكن شاعرنا من ولوج ابوابه . فمجرد ولوج الباب كلف الكثيرين سنوات من العمر كاملة . ومن حرص الشاعر على ذاته ، واحساسه الفردي بفروسيته ارتوى تخوف الشاعر فاحجم عن مواصلة الرحلة المضنية الضارية ، وانقذه فهمه والانسان المتيقظ في اعماقه من مواصلة رحلة التقهقر الرهيبة . فأسقطه تمزقه بين الرحلتين في هاوية التجريد . وخرج (اقول لكم) شاهدا علـى هذا الموت الفاجع ومسجلا له .. وفي قاع التجريدية ، وبعد ان نضجت الحقائق الغامضة ـ عبر اجتيازها مسافات زمنية كافية ـ واسفرت عـن وجهها تماما ، احس الشاعر بالتمزق العنيف بين واقعه الراهن ، وبين الماضي موصولا بالاحلام .. بيـن الاحجـام الخائف ، وبين شـرف الفروسية الذي يشجب كل الاثمان التي تدفع من اجله حتى ولو كانت سنوات العمر نفسها . صحيح انه اجتاز اجتماعيا الموقف الطبقي الذي من فوق ارضه تحرك محتضنا رؤية الشعب للواقع ومتبنيا قضاياه . لكن الفنان في اعماق شاعرنا يلح عليه الا يتقهقر عن موقفه الاول ما دامت مواصلة الرحلة صعبة عليه . فما زال في اعماقه يعتقد بان هذا الموقف وحده هو الصحيح والجدير بالاعتناق . ويشكل له هذا الالحاح كابوسا ضميريا مقلقا ما يلبث ان يلقي به من جديد في براثن التمزق الـذي تنضح به كل قصائد الديوان . لذلـك فالشاعـر ضجـر بالامتيازات الطبقية التي تحيط به . ولكن ليس الى حد رفضها كما يعتقد صديقنا الاستاذ غالب هلسا . فضجره هذا هو ضجر الانسان بالهزيمة ، والذي يسبق دائما بدايات الاستسلام المرير لها . وهو يشبه الى حد كبيـر ذلك الضجر الذي تنضح به كتابات جون شتاينبيك الاخيرة والتـي ينعكس فيها فقدان الكاتب احترامه لنفسه وللفن وللحضارة ولكـل شيء ، بعدما فقد دوره الحقيقي في الواقع ، وانحرف بقلمه بعيدا عـن الطريق الذي بدأه في (لمن الفئران والرجال) و (عناقيـد الغضب) و (هضبة تورتيلا) . وجـاءت (شتاء سخطنا) مرثية عظيمة ورائعـة للطريق الاول وشاهدا صادقا على ضجر الفنان وضيقه بالارض الحضارية والموقف الانساني الذي يتحرك منهما . ويشبه ايضا ضجر دوريـان جراي ـ بطل رائعة اوسكار وايلد ـ المرير بصورته . التي تسجل عليه كل سقطاته وترصد له كل انحراف . ولكنه برغم ضجره الشديد مـن هذه الصورة ظل وحتى اخر لحظة مستمرا في حياته بنفس الاسلـوب الذي يشعره بالقرف من نفسه ، ومن ثم جاءت محاولته لتمزيق الصورة في اخر الرواية انعكاسا لرغبته المريرة في التخلص من كابوسها المضجر الرهيب .. ولان ضجر شاعرنا بهذه النغمات والامتيازات قرين ضجر شتاينبيك ودوريان جراي ، فاننا نجده مصحوبا بتوق رومانسي معذب الى لحظات حب مخلصة وصافية . اذ كان الحب المخلص ميسم المرحلة الاولى . ومن ثم يضنيه برغم تلبسه للموقف الطبقي الجديد ، الاحساس بالغربة عن هذه الامتيازات وعن ثرثرات هذه الطبقة وتفاهاتها ، يحـن الى الموقف الاول والكلمات الصادقة . فهو كشاعر مدرك لدور الكلمـة وعظمتها ، وهو كانسان يدرك عجزه عن ان يكون الفارس الأول الـذي لا تلين قناته امام التنعمات ولا يضعف من مواجهة الامتيازات والـذي بالكلمة يصرع اعداءه . وبعمق ادراكه هذا من احساسه بالغربة ، ابدا لا يخففه . وفي صقيع وحدته المريرة تلك ، يرتجف قلبه ويحس بدبيب خطوات الذبول فوق اشلائه ..

ينبئني شتاء هذا العام انني اموت وحدي
وان اعوامي التي مضت كانت هباء
وانني اقيم في العراء
ينبئني شتاء هذا العام ان داخلي مرتجف بردا
وان قلبي ميت منذ الخريف
قد ذوى حين ذوت اول اوراق الشجر
ثم هوى حين هوت اول قطرة من المطر
ينبئني شتاء هذا العام ان هيكلي مريض
وان انفاسي شوك
وان كل خطوة في وسطها مغامرة
وقد اموت قبل ان تلحق رجل رجلا
في زحمة المدينة المنهمرة
اموت لا يعرفني احـد
اموت .. لا يبكي احـد

فارسنا يشعر إنه ميت لا محالة لو استمر في ممارسة طقوس هذه اللعبة الزائفة التي تستل من اعماقه الانسان يوما بعد يوم .. وهـو ليس جزعا من الموت في حد ذاته . ولكن الذي ينبت في اعماقه المخاوف، انه سيموت في ارض غير ارضه . لن يعرفه فيها احد ولن يبكي عليـه احد . وجزع شاعرنا هذا يذكرني بهاري بطل رائعة همنجواي (ثلـوج

كليمنجارو) .. وذلك الفنان الذي استسلم رويدا رويدا لبريق الامتيازات الطبقية والتنعمات . وجرى خلف المتع الصغيرة التي وفرها له ثراء معشوقته الموسرة . وكان يعلل نفسه دائما بأنه موجود في ارض هؤلاء الاغنياء التي يشعر فيها بالاغتراب . فقط من اجل ان يتفقد حياتهم حتى يكتب عنها يوما .. ثم اطل عليه الموت فجأة عقب جرح اهمل فاحدث غرغرينا في الساق كلها .. وكان هاري ساعتها بعيدا عن (وطنه) يصيد الوحوش في اواسط افريقيا .. فاحس بوحدة مميتة وبغربة قاتلة .. انه يموت الان بأرض الغرباء .. وحتى المشروعات والافكار الصغيرة الرائعة التي طالما اجل الكتابة عنها ، ما عاد لديه وقت ليكتبها . وليس امامه الان سوى الموت غريبا بعيدا منكرا ، بعدما فاحت من ساقه رائحة العفن الذي كان قد تسرب الى روحه منذ سنوات طوال ... يشبه هاري الى حد كبير فارسنا القديم ان لم يكن قرينه الروحي. فقد كان هاري يجتر فيوحدتهالعقيم احلامه وكذلك يفعل فارسنا الان . والندم والغربة والاحساس بالعزلة وخوف الموت في ارض الغرباء حيث لن يذكره احد ولن يبكي عليه احد من همومهما المشتركة . والاحساس بعقم الحب عند هاري يرادفه احساس فارسنا بزيف هذا الحب وعدم سلامته . بل وسيطرة مواضعات الواقع الخاطئة عليه . ولان الفنان ما زال يطل برأسه في اعماق فارسنا ، يلح عليه ككابوس ضميري ثقيل ، فانه يقدم كل هذه الهموم والاحاسيس الذاتية من خلال رؤيته للواقع وتصوره له . ويمزج لنا في براعة تسجل له ، موقفه كشاعر وكممثل في المشهد الدامي الذي يعيشه .

وفي (اغنية الليل) يجسد بصورة شعرية كل مأساوية الموقف ويضعه تحت عين القارىء . لا كصورة موضوعية كاشفة عبر اطار شعري متقن عن رؤية الشاعر للموقف فحسب ، ولكن ايضا كحالة من الضروري تخطيها ... وأبدا لا يصرخ الشاعر مطالبا بطريقة غلافية بهذا التخطي ، ولا يقدمه بشكل خطابي فج ... بل قد تعود بالفشل لو حاولت العثور على جزئيات شعرية محددة دافعة الى موقف التخطي ذاته . فصلاح هنا يحاول ان يقدم هذا الاحساس من خلال القصيدة ككل وعبر الزاوية التي اختارها كمنطلق للتعبير . ومن هنا نجد ان التجربة الشعرية في هذه القصيدة ناضجة جدا ومتكاملة . بل انني ما زلت اذكر ارتعاشة الفرح التي احسستها بداخلي عندما قرأتها لاول مرة – في جريدة اخبار اليوم عام ١٩٦٢ – .. ساعتها انتشيت بالقصيدة الى درجة كبيرة ، اذ وجدت فيها التعبير الشعري المتكامل عن الحالة الشعورية والحضارية التي كنا نعيشها انذاك . واستطاعت الحبيبة المزوقة بالمساحيق المستسلمة في اخلاص مسيحي قاتل لقدرها. ان تكون شيئا اكبر بكثير من مجرد حبيبة .. ولم يعد عاهرها المتوج بالحديد والحصى محضن عاشق .. ولنتناول هذه التجربة الثرية بشيء من التفصيل . في الحركة الاولى من القصيدة نقرأ ..

الليل سكرنا وكأسنا
الفاظنا التي تدار فيه نقلنا وبقلنا
الله لا يحرمني الليل ولا مرارته

في تركيز وتكثيف شديدين ، يقدم لنا الشاعر الاطار العام الذي تدور فيه القصيدة . الليل السادر كالابدية . والذي تدور فيهالكلمات والاحداث كثيران السواقي المعماة .. هو الخمر والكأس في آن ، وهو الشيء الوحيد الذي علينا ان نعيشه وان نجتر مرارته . ثم بعد ذلك ينتقل بنا ببساطة بارعة من العام الى الخاص . من الاطار الذي تدور فيه كل الاحداث الى مأساة فارسنا المحددة بكل ملامح هذه المأساة الخاصة وكل جزئياتها ...

وان اتاني الموت ، فلامت محدثا او سامعا
او فلامت أصابعي في شعرها الجعد الثقيل الرائحه
في ركني الليلي في المقهى الذي تضيئه مصابح حزينه
حزينة كحزن عينيها اللتين تخشيان النور في النهار

فارسنا هنا وبرغم استمرائه لحياة الليل ، ما زال يشعر بالاغتراب فيه ، ما زال قلبه يرتجف من جهامة لونه الكئيب . وهو لذلك يخشى الموت في هذه الغربة المريرة كما ذكرنا ، ويريد بشتى الطرق ان يبعد عنه شبحه الكابوسي الكئيب . ولما كانت محاولة ابعاد شبحه وسط هذا الليل–الليل حليف الاشباحدائما عند شكسبير – غقيمةومستحيلة فانه يريد ان يموت محدثا او سامعا .. يريد ان يموت في حضنها واصابعه تتخلل خصلات شعرها الجعد الثقيل الرائحة . ولكن برغم ان شبح الموت ماثل امام عينيه لا يريم . الا انه لا ينقض فورا ليجهز عليه ويوفر الترقب المتوتر الفزع ... ومن هنا ليس امام فارسنا سوى اجترار الاحزان في ركنه الليلي في المقهى الذي تلوحعيناها عبر مصابيحه الحزينة . وهنا يركز الشاعر الموقف في جزئية صغيرة يتعمق عبرها المأساة ويدلف منها الى كل عمومياتها . اذ يتعمق بشاعرية خصبة عيني حبيبته الحزينتين بصورة تمتاح بها حدود المحبوبة الانسانة الى آفاق المحبوبة الرمز ، وتساعده من الان نفسه على ان يلج بيسر كل سراديب مأساتها ...

عينان سوداوان
نضاحتان بالجلال المر والاحزان
مرت عليهما تصاريف الزمان
فشالتا من كل يوم اسود ظلا
عينان سردابان
عميقتان موتا
غريقتان صمتا
فان تكلمتا ..
تندتا تعاسة ولوعة ومقتا

بعد ان ركز الشاعر على هذه الجزئية الصغيرة هيأ القارىء بصورة شعرية لالتقاط ابعاد المأساة ، وانتقل به عبر حدقتي عينيها اللتين شالتا من كل يوم اسود ظلا ، فأصبحتا سردابين عميقين للموت والصمت والتعاسة – من الاطار العام لليل والضياع الى المأساة الخاصة التي ترتوي هي الاخرى من هذا الاطار وتتوافق معه .. ليقدم لنا دفعة واحدة جزئيات الموقف الذي نسج خيوطها .. اذ

ينكشف السرداب حينما تدق الساعة البطيئة الخطى
معلنة ان المسا قد انكشف
تقول لي العينان ...
« يا عاهري المتوج الفودين بالحديد والحصى
يا ملكي الغريب الاسم المزيف السمات
احببت فيك رؤية رأيتها منذ الصغر
وكان يشبهك
وليس انت !.. ليس انت ! »
« كان فتى حلمي جميلا لا مزوقا
مثقفا لا ذرب اللسان
محتشما نبالة في الطبع لا خوفا
وعاطفا .. لا عاطفيا »

المأساة هنا ترتوي من الفاجعة التي تعيشها الحبيبة ، بعدما عانقتالخيبة ابعاد حلمهاالتي نثرت الضراعات والاعوامعليهتتحقق. ولاح الحبيب الذي انتظرته طويلا بعد طول الغياب والانتظار – يجب ان نلاحظ هذا الحبيب الغريب ليس نفس الفارس الذي يجتر على مناضد الليل مأساة الحبيبة المنكوبة – .. شق المجهول وجاء . لكن ، ويا لهول الفاجعة ، جاء المحبوب مسخا .. صحيح انه يشبهك يا فارسنا الهمام لكنه « ليس انت .. ليس انت » والحب لا يرضى البديل الزائف .. فماذا تفعل الحبيبة العميقة العينين ، انها لا تملك الا ان تهتف ...

يا عاهرى ، يا خدعتي ، يا قدري
في الساعة الليلية الاخيرة
خذني الى البيت فانني اخاف ان يبلني الندى

تذوب اصباغي ويبدو قبح وجهي
وتصمت العينان ترجمان
عميقتان صمتا
غريقتان موتا

ان تستسلم في خزى لمصيرها المؤلم ، فهي لا تملك غير الانصياع المر .. ولانها ابنة الليل ووليدته . فانها تتوسل اليه ان يأخذها الى البيت قبل ان يهل عليها ضوء الصباح او يسقط ندى الفجر ، فتبتل اصباغها ، يذوب زيفها ، ويطل الوجه قبيحا عاريا من المساحيق كئيبا ، عليه بالحديد المحتمى مياسم الذل والخضوع. ثم تصمت العينان ترجعان من جديد .. عميقتان صمتا .. غريقتان موتا . ويرتد الشاعر بعد ان قدم لنا في الفاظ حادة عارية من كل زخرف وشديدة الالتصاق بلغة الحياة اليومية ، جوهر المأساة مكثفا . الى الاطار العام مرة اخرى .. الليل والاحزان .. يرتد اليه بعد ان اثراه بهذه التجربة المأساة ، وبعد ان اكد ان ولعه به ليس شيئا مجردا ولا منبت الصلة بالواقع . فهو وليد عجزه عن انفاذ الحبيبة المكتوية بمياسم الذل والخضوع ، وتشربه العميق لمأساتها . بل انه حينما يرتد الى الاطار العام من جديد فانه يقدمه في صورة اشد تركيزا واعمق مأساوية .

الليل ثوبنا ، خباؤنا
رتبتنا ، شارتنا التي بها يعرفنا اصحابنا
« لا يعرف الليل سوى من فقد النهار »
هذا شعارنا
لا تبكنا ، يا ايها المستمع السعيد
فنحن مزهوون بانهزامنا .

فيستحيل الليل هنا ، بعد ان كان الخمر والكأس في بداية القصيدة ، الى الحياة نفسها . الثوب والرتبة والشارة المميزة والخباء ـ بكل الايحاءات الصوفية للكلمات ـ وغلاف كل شيء هو . ثم ما يلبث الشاعر ان يفجر القصيدة في النهاية بذلك التعارض الحاد الذي يعربد في البيتين الاخيرين . فبرغم هذا الليل السادر كالابدية . برغم حلكته ، وبرغم انه تلبس الحياة تماما الا أن المهزومين مزهوون بانهزامهم. ان هذا التعارض الحاد الذي يستعيره صلاح من بوب ومالارميه يثري القصيدة ويفجرها حركة وديناميه .

و (اغنية في الليل) ليست القصيدة الوحيدة التي يسجل فيها الشاعر احساسه بالوحدة واغترابه . وفقدانه لوجهه في هذا الليل السادر . وعدم قدرته على ان يكون الفارس المرتقب ، او ان يتخلى تماما عن الحلم بالوصال والسعادة . فالديوان مكتظ باحالات عديدة تكثف تمزق الشاعر الذي سبق ان تحدثنا عن مبرراته ، وتجسد قلقه الشديد من موقفه الراهن من الواقع ومن الاشياء .. في (اغنية من فيينا) نحس باغتراب الشاعر ووحدته نستشعر نبضات القلب المرتجف الممزق من قسوة الحياة المدينية ـ ولنؤجل قليلا الحديث عن موقف الشاعر من المدينة ـ وجفافها ... وعبر قصائد الديوان نلمس رنة من التأسي على الماضي الذي يحس كل لحظة بتألقة ممزوجة بالندم ومن الرعب من الحاضر الذي تداعبه الهزيمة فيه وتنوش اطراف الانسان في اعماقه ..

قد كنت فيما فات من ايام
يا فتنتي محاربا صلبا ، وفارسا همام
من قبل ان تدوس في فؤادي الاقدام
من قبل ان تجلدني الشموس والصقيع
لكي تذل كبريائي الرفيع .

ان مأساة فارسنا يثريها كل يوم اتساع الهوة بين احلامه وواقعه. خاصة وان واقع الانسان المنهزم يزداد كل يوم تدهورا .. فالهزيمة تستدعي الهزيمة ... والاحلام هي الاخرى تتنامى ، تتعمق فعاليتها كلما واصل بعض الفرسان الرحلة ولاحت الاحلام المستحيلة على ذرى الواقع كالحقائق .. ولا يجد فارسنا في غربته المميتة تلك سوى الاحلام ، التي تعمق من احساسه بالغربة وتحمل بين طياتها كل التناقضات التي تمزق شاعرنا ..

رأيت في المنام انني اقود عربة
تجرها ست من المهارى
تجوب بي الوديان والصحارى
وفجأة تحولت خيولها قططا
تمشي الى الوراء ، وجهها ، عيونها تبص لي شرارا

في هذا الحلم نجد الخيبة التي مني بها الفارس في حياته بعد احالها لا شعوره الى حلم فاجع يعمق من احساس الشاعر بهزيمته وغربته ويزيد قلبه الخائف ارتجافا .. فالصمت يحاصر احلام الشاعر ويخنق كل محاولاته للخلاص .

(٣) الصمت .. يا احلامي المبعثرة

ليس ثمة شك في ان الوجود الاجتماعي هو الذي يشكل الوجدان الاجتماعي ، كما تشكل الاشياء المادية عبر تطور التاريخ باعتباره كلا متفاعلا ، الاشياء الفكرية . الا انه ليس هناك من يستطيع ان ينكر ما للوجدان الاجتماعي من رد فعل على الوجود الاجتماعي . وان اعترافنا بأساسية الوجود الاجتماعي لا يعني ابدا ، اغفالنا لدور الوجدان الاجتماعي وحيوية هذا الدور . ومن هنا اكدنا على ان الفن ليس صدى عفويا للواقع ، وانما هو تعبير واع عنه متأثر به ومؤثر فيه في الان نفسه . وعلى ان « عمل الشاعر ليس في الانتظار حتى تتجمع الصرخة من تلقاء نفسها في حلقه ، بل ان عمله هو أن يتصارع مع صمت العالم ومع كل ما كان خلوا من المعنى فيه . ويضطره الى ان يكون ذا معنى .. الى ان يتمكن من جعل الصمت يجيب وجعل اللاوجود موجودا . انه عمل يأخذ على عاتقه ان (يعرف) العالم ، لا عن طريق التأويل او الايضاح او البرهان ، ولكن مباشرة ، كما يعرف الانسان التفاح في فمه » (١) .. وتصارع الشاعر مع صمت العالم يسفر عن نفسه في اشكال متباينة وعديدة الى الحد الذي يمكننا معه ان نعتبر تسجيل صلاح عبد الصبور لمرارة الغربة العلقمية التي يعيشها بالصورة التي تدفع القارىء الى الاحساس بالتقزز من هذه الحالة وضرورة تخطيها ، نوع من الصراع مع صمت العالم ، والاحساس بالغربة والعزلة ، يدخل ضمن اطار الوجدان الاجتماعي الذي يلزم حتى يصبح مقنعا ان نصوب الاصبع الى الوجود الاجتماعي الذي يولد هذه الحالة الكئيبة من الاغتراب والوحشة . واحساس فارسنا بالغربة ليس مرتويا فقط من وقوفه على حافة الهزيمة ، ولكن ايضا من الصمت وانهيار الاحلام . وهما التجسيد الشعري لتخوف الشاعر وفقدانه لوجهه

(١) الشعر والتجربة ، ص ١٧ ، ١٨ .

فندق نيو بالاس
ادارة : فتحي نوفل
وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف
جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان
ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١
١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكون بعماد الدين
New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby Telephone 45936 - Cairo

التعبيري السليم من جهة ، وعدم قدرته على اجتراح المعجزة واستدعاء الحلم الى ارض الواقع من جهة اخرى . ومن ثم يلوح الصمت عبر الديوان كابوسا رهيبا يقعد فوق احلام الشاعر فيحيلها الى اشلاء مبعثرة وشاهدة على مأساوية الموقف . والصمت هنا ليس مبررا جزئيا لتبعثر احلام فارسنا اشلاء ، ولكنه ـ كالليل ـ في الديوان ـ اطار عام يغلف كل جزئيات الواقع وعبره تلتقطها حدقتا الشاعر .. ومن ثم فهو ليس صمتا عاديا كذلك الذي يتخلل انهمار الحديث . بل صمت كثيف ثقيل رازح .. صمت شامل يلف المدينة والقرية على السواء ..

الصمت راكد ركود ريح ميته
حتى جنادب الحقول ساكنه
وقبة السماء باهته
والافق اسود وضيق بلا ابواب
منكفىء من حيثما التفت كالسرداب

في هذا الصمت الراكد تموت الحياة . ويسود الافق ويضيق كالسراديب العتمة . ويستحيل على الشاعر حتى مجرد التعبير عن ابسط الاشياء . ويرافق الخرس اوتاره ويلتصق الصمم بحواسه . وتتحول الرغبات البسيطة العادلة في ضمير الحياة الى جرائم . لان في محاولة تحقيقها تمزيقا لاستار الصمت ذاتها . وتختزل الكلمات حتى تتحول الى رموز حادة ، متلفعة باردية كثيفة ، اذ تستحيل على الشاعر الافاضة ..

يا سيدتي عذرا
فانا اتكلم بالامثال لان الالفاظ العريانه
هي اقسى من ان تلقيها شفتان
لكن الامثال الملتفة في الاسمال
كشفت جسد الواقع
وبدت كالصدق العريان .

والامثال اقصى درجة من درجات التكثيف . انها الكلمات بعدما اصبحت رموزا ، وهي ليست مجرد امثال صريحة ، ولكنها ملتفة في الاسمال التي تكشف عن بعض خباياها وتغطي البعض . وبرغم هذا فقد كشفت جسد الواقع وعرت النقاب عن كل ما فيه من زيف وعفن وتفسخ. فللالفاظ قدرة خارقة على انتهاك كاة الاستار والحجب ، وولوج العوالم التي يحرم عليها ولوجها عبر سراديب ملتوية تنسجها وتسير فيها . ولان فارسنا شاعر ، فانه يعرف معنى اللفظ ويقدر قيمته .. يعرفه ويخافه في آن .. فهو سيف سحري ذو حدين ، يستطيع ان يقتل العدو ، او يرتد فيصرع القابض عليه ...

ولانك لا تعرف معنى الالفاظ فانت تناجزني بالالفاظ
اللفظ حجر .. اللفظ منية
فاذا ركبت كلاما فوق كلام
من بينهما استولدت كلام
لرأيت الدنيا مولودا بشعا وتمنيت الموت
أرجوك ...
الصمت ... الصمت !

والشاعر يحدثنا عن الالفاظ الشعرية على وجه التحديد . حيث تمارس اللغة كافة وظائفها . وحيث لا تصبح الكلمات مجرد قوالب لنقل المعنى . بل شظايا لاثارة الاحاسيس ، ورموزا لاستدعاء المعاني الكامنة المعنى . بل شظايا لاثارة الاحاسيس ، ورموزا لاستدعاء المعاني الكامنة ولقدرة الالفاظ الشعرية الخارقة تلك فانها تتحول تحت عباءة الصمت الى احجار قاتلة ومخيفة . خاصة وان سيادة الصمت يصاحبها فقدان الحرية الكاملة في التعبير عن كل ما في الاعماق من احاسيس ورؤى..

لو قلت كل ما تسره الظنون
لقلتمو مجنون !

وخوف الوصمة بالجنون يساهم مع الصمت في نسج القضبان اللامرئية .. فالسيادة الخارجية للصمت تخلق في اعماق الناس حراسا شديدي المراس والحساسية ، ومن ثم تمارس هذه الرقابة الداخلية فعاليتها بالشكل الذي يخلق حواجز كثيفة بين الانسان والعالم . ويستحيل الانسان الى السجن والسجين في الان نفسه ، تماما كما يتحول في الظروف المضادة الى الحر والحرية معا . ولعمق الوحدة بين الشخص والحالة ، ولتحول الواقع الخارجي تحت رداء الصمت الى سجن كبير ينعكس داخل الشاعر في الصورة التي اوضحناها . فانه يبدأ داخليا في ممارسة نوع غريب من الارهاب الذاتي الراغب في دفع صاحبه الى داخل قوقعة .. عله يعثر هناك على الامان والرضا . او يجمع شتات احلامه المبعثرة . ويتحول هذا الارهاب الذاتي الى نوع من الماسوشية ، ولكنها ليست الماسوشية النفسية التي نعرفها ، بل هي في هذه الحالة ماسوشية ذات اسباب ومبررات حضارية تدفع شاعرنا الى ان يلقي الى نفسه اوامر تتنافى مع طبيعته كانسان ، بله كشاعر . او بمعنى ادق تتناقض مع هذه الطبيعة ..

احرص الا تسمع
احرص الا تنظر
احرص الا تلمس
أحرص الا تتكلم
قف ! ...
وتعلق في حبل الصمت المبرم
ينبوع القول عميق
لكن الكف صغيرة
من بين الوسطى والسبابة والابهام
يتسرب في الرمل كلام ...

ولا يتناقض الوقوف ، والاستجابة للحكمة الهندية ذات القرود الثلاثة ، وتعطيل الحواس كلها .. السمع والبصر والاحساس والحديث، مع طبيعة فارسنا كشاعر فقط ، بل ومع الحياة ذاتها . ومن ثم لا يجد مفرا من ان ينصح نفسه بالتعلق في حبل الصمت المبرم ، حبل الموت . لكن ينبوع القول عميق .. اعمق من كل محاولات شاعرنا الخائفة والراغبة في كبته . فبرغم كل القيود الذاتية والخارجية . وبرغم تعلق فارسنا في حبل الصمت المبرم .. الا ان الكلمات تتسرب من بين اصابع اليد القابضة على زمام كل شيء ، لتعرب عن حالة فارسنا الراهنة وعن ابعاد الواقع الذي يعيشه . وتسرب الكلمات من بين اصابع اليد لا يشجب الصمت ولكنه يؤكد ثقله وركوده وسيطرته . فالكلمات تحت عباءته تحاول ان تتخفى بشتى الطرق ، وان تتسرب راجفة من بين الاصابع .. بمعنى ادق ، تحاول ان تؤكد ان ثمة صمت رازح يدفعها الى تنكب هذه الدروب التي تفقد الكلمة فيها بساطتها وجزءا من عظمتها وقوتها . وهذا هو ما يؤرق فارسنا ويعمق من احساسه بالاغتراب عن واقع تمتهن فيه الكلمات ويشارك ـ بسلبيته على الاقل ـ في امتهانها. وهذا هو ما يزج بشاعرنا في تناقض حاد مع اي شيء يستطيع ، تحت رداء الصمت الرازح هذا ان يحتد معه ، وان يسجل عبره كل التناقضات والتمزقات الذاتية والحضارية التي تطحنه . ويفجر فيه طوفانات الغربة التي تمور في الاعماق منه وتهتك امنه ورضاه . ولان الشاعر ابن المدينة المدلل الذي سئم تنعماتها واحتفائها الزائف به ، فانه يفجر كل طوفانات التمزق تلك في التناقض معها .

(٤) الخوف من المدينة .. نغمة جديدة

ان ظهور الخوف من المدينة في ديوان الشاعر الثالث مطلا برأسه لاول مرة على عالمه الشعري ، ظاهرة ملفتة للانتباه بحق وجديرة بالدراسة . صحيح اننا قدمنا منذ لحظات المبررات الموضوعية لظهور هذا الخوف الغريب من المدينة في (احلام الفارس القديم) والناجم عن سأم الشاعر من احتفائها الزائف به ، وضجره بتنعماتها التي اضعفت من مقاومته ، وافقدت كلماته القدرة على الوصول مباشرة الى قلب الشعر والقارىء على السواء . ومن ثم فان خوف الشاعر من المدينة

ليس وليد الدهشة الطفولية ازاء طلاسمها الحضارية ، او العجز عن فض مغاليق هذه المدينة الساحرة المعذبة القاسية ، او الاسى الرومانسي الذي تنضح به قصائد حجازي الاولى ، والذي يرى في القرية الفردوس المفقود المكتظ بالبراءة والبساطة والذي يحلم في سذاجة بمواضعات قروية في المدينة . ولكنه خوف راغب من نوع غريب ، يشبه الى درجة كبيرة خوف المحكوم عليه بالاعدام من حبل المشنقة ، او ضجر الانسان بصليبه الذي يحمله فوق ظهره رغما عنه ، ولكنه لا يستطيع الفكاك منه . ولذلك فان رعب الشاعر من المدينة يمتزج بعشقه لها . هي بالنسبة اليه كالابنة المسخ الشائهة ، لا يملك والدها لها غير الحب ، برغم تقززه منها ورعبه من وجهها كلما جن الليل . او كالام العاهرة يكرهها ابنها ولكنه لا يستطيع انينكر بنوته لها .. هي السجن والحرية ، والام والابنة .. وكل شيء هي .. حجه ومبكاه .. غربته وحنينه ، وهو راغب فيها وعازف عنها في الوقت نفسه .. مشتاق اليها وخائف منها ..

لقاك يا مدينتي خجي ومبكايا
لقاك يا مدينتي اسايا
وحين رأيت من خلال ظلمة المطار
نورك يا مدينتي عرفت انني غللت
الى الشوارع المسفلته
الى الميادين التي تموت في وقدتها
خضرة ايامي .

... عندما ابصر من خلال ظلمة المطار نورها آن عودته بعد شهور من التجوال ، انداحت في اعماقه الاف الرؤى والذكريات ، وادرك ان العودة اليها قدر لا مهرب منه برغم انه قد قيد الى شوارعها المسفلته ـ لاحظ بساطة الكلمة وثراءها بالدلالات ـ والى ميادينها التي على قارعتها يسفح خضرة ايامه . غير ان معرفته تلك لم تشجب حبه لها ، فهو برغم كل شيء ما زال يحبها ...

اهواك يا مدينتي
اهواك رغم انني انكرت في رحابك
وان طيري الاليف طار عني
وانني اعود لا مأوى ولا ملتجأ
اعود كي اشرد في ابوابك
اعود كي اشرب من عذابك

ما زال فارسنا يحب مدينته رغم انها ابدا لم تفرش كفيها سريرا له ، وعلى قارعتها ضاع ، لا مأوى ولا ملتجأ .. شريرا لم تقدم لـه سوى كأس من عذاب .. في متاهاتها تركته يسفح خضرة ايامه التي تمتصها شوارعها المسفلتة المتلمظة دوما الى دمه . هي مدينة مرعبة وقاسية كمدن الصمت النحاسية في اساطير الف ليلة . ولكنها برغم كل ذلك معشوقة ومرغوب فيها . واهبة الرعب ولكنها القادرة ايضا على ان تعد بالحب والامان والرضا اذا ما تغيرت مواضعاتها . هي الان تعطي الرعب ، فليلها سادر كالابدية ، والصمت ، الصمت يغلفها يفرد ارديته فوق جميع المنعطفات ، وشوارعها السوداء الناعمة الاسفلتية تفغر فاها، تتلمظ دوما لدماء الفارس .. تأكله تنثر فوق الاسفلت الاسود اغلى احلامه ، واعز امانيه تدوس عليها ، تنهشها بمخالبها القاسية الفاقدة الرحمة . انها السجن والسجان ، ويا ويل فارسنا من ليلها الكئيب . لذلك نجد انه برغم شوقه اليها خائف من عودته لها لانها عودة في الان نفسه ، الى مأساته ، والى عذابه ، والى التجسيد الحي لعجزه . وهو برغم رعبه منها يحس بالاسى من اجلها ومن اجل نفسه .. فقد حرره شهر من التجوال منها وربطه بها في آن واحد .. خلق بينه وبينها مسافة مكنته من رؤية مأساتها بوضوح ، ومن ثم عاد مشوقا اليها . وخائفا من ان تفجر معايشته لمأساتها من جديد سخطه على نفسه وعليها معا .

لقاك يا مدينتي يخلع قلبي ضائعا ثقيلا
كأنه الشهوة والرهبة والجوع
لقاك يا مدينتي يقتلني
لقاك يا مدينتي دموع

هذه مأساته وهي ايضا مأساة مدينته . ولان المدينة تعيش مأساة ضارية فانها ترغب ابنها وتنكره وتقتله . ومن هنا التحمت مأساة الفارس بمأساة مدينته . ومن هذا الالتحام يرتوي خوف الشاعر من المدينة وعليها في آن.ويمتزج بأحساسه بالاغتراب في شوارعها الواسعة المسفلتة . انها امه كما ذكرت ، ولكنها ام عاهرة . يحس بمرارة الوحدة برغم ان رأسه في صدرها .. ويخاف الموت الذي تتخفى هواجسه دائما تحت اردية الوحدة ..

وقد اموت قبل ان تلحق رجل رجالا
في زحمة المدينة المنهمرة

والخوف من ازدحام المدينة احساس لا يولد الا في حالة عدم التوافق معها والرعب من مواضعاتها ، وقد يكون فقدان التوافق مع المدينة وليد اختلال داخلي او خارجي . وهو هنا وليد الاثنين معا . ففارسنا يعاني من تمزقات داخلية حادة . ومدينته هي الاخرى مصابة بالصمت . ولذا فان عدم انسجامه معها حاد وشديد العمق . فنجد ان المدينة نفسها ترفض ان يعيش فارسنا فيها لحظة نشوة كاملة نطرده من جوفها بقسوة ووحشية ..

لما رأينا الشمس في مفارق الطرق
مدت ذراعيها الجميلتين
مدت ذراعيها المخيفتين
ونقرت اصابع المدينة المدببة
على زجاج عشنا ، كأنها تدفعنا
تذهب ، أين ؟..

هي السجن والسجان وابدا لا مفر منها . هي لحظة النشوة ولحظة الفراق والاسى هي . تنتزع الفارس من قلب النشوة ، يصرخ .. تذهب اين ؟!.. فانت مدينتنا الام ونحن الابناء البررة ، نهواك برغم جفائك ، وبرغم الالم الراعب تنثره يداك القاسيتان فوق كل ايامنا . وعندما تطردينا ، فاننا بصدورنا نحمل اسرارك معنا ، اينما سرنا ...

اخرج من مدينتي من موطني القديم
مطرحا اثقال عيشي الاليم
فيها ، وتحت الثوب قد حملت سرى
دفنته ببابها ثم اشتملت بالسماء والنجوم

ونحلم ، والاسرار تلوب في صدورنا كل لحظة ، بصورتك المرتقبة الرائعة ، تماما كحلم ايلوار بأن تعود باريسه لتأكل القسطل في الشوارع من بعد طول جوعها وبردها ..

اواه يا مدينتي المنيرة
مدينة الرؤى التي تشرب ضوءا
مدينة الرؤى التي تمج ضوءا
هل انت وهم واهم تقطعت به السبل
أم أنت حق ؟
أم أنت حق ؟

هذه هي رؤية الشاعر للمدينة.. لواقعها الراهن ولصورتها المرتقبة والتي شالها في ضميرة . لخوفه منها ولرغبته في ان يعثر في فيئها على الحب والامان والرضا .. غير ان النغمة البارزة في موقفه من المدينة هي الخوف منها والرعب من مواضعاتها الجائرة التي يسيطر عليها الصمت ، والنفور من تنعماتها الظاهرة .. لكن صلاحا في هذا الصدد لم يقدم لنا الصورة الشعرية الناضجة التي يمكنها ان تنقل لنا كل الشحنات الانفعالية التي ينضح بها موقفه من المدينة .. فعندما اراد وليم بليك مثلا ان يقدم ضيقه بلندن وسأمه بمواضعاتها ، قدم لنا هذا ـ في قصيدته (لندن) ـ الضيق والضجر عبر رؤية شعرية واضحة ومقنعة ..

انني اتجول في كل الشوارع المستأجرة
التي يجري بجانبها نهر التايمز المستأجر
والاحظ في كل وجه اقابله
علامات الضعف وملامح الخوف
في كل صرخة تنبعث من كل رجل
في كل صرخة رعب يرسلها طفل
في كل صوت ، وفي كل اللعنات
اسمع اغلال عقل مصفد
وارى كيف تروع صرخة منظف المدخنه
كل كنيسة مسودة .
وتنهيدة الشرطي التعس
تجري دما فوق حيطان القصر
واسمع كثيرا في شوارع منتصف الليل
كيف تعصف لعنة العاهرة الشابة
بدمعة الطفل الغرير
وتنشر الطاعون فوق جنازة الزواج

هذه هي قصيدة وليم بليك كاملة .. افقدتها الترجمة الكثير ولكنها بعد ذلك جاءت لتقدم الضجر من المدينة ، والضيق بمواضعاتها الجائرة ، والاسى على الالاف الذين ينسحقون في دروبها كل يوم ، بطريقة شعرية ناضجة .

(٥) الحب في هذا الزمان المر

اذا كان الحزن هو قماش اللوحة التي يقدمها ديوان (احلام الفارس القديم) ، والتي تتنوع الوانها بدءا من الخوف الراعب الباهت من المدينة ، حتى الصمت الداكن والليل الاسود السادر المدلهم ، فان ابرز الوان هذه اللوحة واكثرها انتشارا في ثناياها هو الاحساس الحاد المتوهج بالاغتراب والوحدة ، ذلك الاحساس الذي يتردد في الديوان كايقاع سائد منتظم ، بالدرجة التي يمكننا ان نقول معها ان اغلب الموضوعات الاخرى التي تناولها صلاح بالمعالجة في هذا الديوان ليست الا تقاسيم متنوعة على هذا اللحن الرئيسي السائد . غير انه اذا ما كان الاحساس بالاغتراب والعزلة ابرز الوان اللوحة واوضح نغماتها ، فان الحب العقيم هو ظل هذا اللون او هو احدى درجاته النغمية . فاحساس الشاعر بالاغتراب والوحدة والذي تحدثنا عن المناهل التي يرتوى منها منذ قليل ، هو الذي يهب الحب في الديوان هذا الطعم المر الخانق ، وهو الذي يفجر كل قصائد الديوان حنينا الى الحب الصادق والى الانفعالات البريئة الخالصة .

وزيف الواقع ، وتبعثر الاحلام فيه وتناثرها مزقا واشلاء ، ووقوع مدائنة اسرى قضبان الصمت ، وسيطرة المواضعات الجائرة على مواضعاته الحضارية ، واحساس الشاعر بالاغتراب عن تنعمات المدينة ، وعن الدور الحقيقي للشعر والكلمات ، وتمزقه ازاء هذا الوضع الراعب المذل .. كل هذا خلق في اعماق فارسنا توقا عميقا ، صادقا وصوفيا ، الى واحة ظليلة من العواطف البريئة الصافية . لكن .. انى هي هذه الواحة يا ترى في واقع كهذا ؟ .. لقد استحال الحب هو الاخر ، تحت رداء كل هذه الاشياء الجائرة الى مسخ غامض مستوحش كئيب . ليعمق من احزان الشاعر ويثريها .. بل لقد قطع الحب اشواطا ابعد من ذلك بكثير .. اذ لم يعد مجرد واحد من الشرايين التي تضخ الدم في عروق الاحزان لتورق اسى . بل اصبح رديفا لهذه الاحزان وقرينا لها ...

الحب في هذا الزمان يا رفيقتي ....
كالحزن ، لا يعيش الا لحظة البكاء
او لحظة الشبق
الحب بالفطانة اختنق
اذا افترقنا يا رفيقتي ، فلنلق كل اللوم
على زماننا
ولننفض الايدي من التذكار والندم

رؤية الشاعر للحب كرؤيته للحزن ، من ابعاد عميقة ترتوي ، فالحب الذي يتحدث عنه الديوان ، ليس ذلك المشجب التقليدي الذي يعلق عليه الشاعر تنهداته الرومانسية واحلامه الياسمينية . ولكنه قطرة المطر التي يتشوق الى نقائها وسط جفاف الهاجرة الجديبة . العاطفة البريئة وسط صحراء قاحلة لا تنتشر على وهادها غير الانفعالات الغلافية والعواطف الزائفة .. ولذلك فان ضجره بالحب الذي لا يعيش الا لحظة التأسي او لحظة الاستغراق البهيمي في النشوة عميق وحاد . يضاعف من حدته فقدانه للحب الحقيقي ، الذي غاب ليزداد طعم الزمان الكئيب مرارة . فهذا الحب المفقود هو القادر على انتزاع الشاعر من وحدته الكئيبة واغترابه ، وهو وحده الذي يستطيع ان يكسر حدة تخوفه من المدينة ، وان ينثر مكان صمتها الدامي الاغنيات . ورؤية الشاعر للواقع ، وفهمه لابعاده هي التي تؤكد له استحالة تحقيق ذلك الحب فيه . فتلوح الحبيبة في قصائد الديوان كأمل عذب مغلف بالضباب ، ومن ثم تصبح اكثر من محض حبيبة بشرية عادية يهب صدرها الدفء والحنان والرضا ..

صافية اراك يا حبيبتي كأنما كبرت خارج الزمن
وحينما التقينا يا حبيبتي ايقنت اننا مفترقان
وانني سوف اظل واقفا بلا مكان
لو لم يعدني حبك الرقيق للطهارة

تصبح رمزا واملا بدونه لا يستطيع فارسنا ان يسترد طهارته التي فقدها ، ولا احلامه بالبراءة ممكنة التحقيق بدونها . هي التي ستحقق له الوجود ، وبدونها يمتصه الضياع ، يظل واقفا بلا مكان . ولذلك يبحث عنها في كل مكان عله يعثر عليها ، ومعها يسترد كل ما ضاع ..

ابحث في كل الحنايا عنك يا حبيبتي المقنعة
يا حفنة من الضياء ضائعة .

وحينما يصادف طيفها عابرا ، لا يملك الا ان يناديها ضارعا بأن تتريث قليلا ليحدثها عن الحب الذي يتوق ان يبل غربته .. ذلك القطر السحري الذي باستطاعته وحده ان ينتشلهما سويا من وهاد الصمت والاحزان .. عليها هي الاخرى ان تتمسك به ، ان تتعلق بكل قوتها به، فهو وحده الذي بامكانه ان يعتقهما من اسار الصمت والخوف والتعب.

يطيب لي في اخر المساء ان اقول كلمتين
شفاعة ارفعها اليك يا سيدة النساء
الحب يا حبيبتي اغلى من العيون
صونيه في عينيك واحفظيه
الحب يا حبيبتي مليكنا الحنون
كوني له مطيعة سميعة
الحب يا حبيبتي هدية الحياة لي ولك
لمتعبين حائرين في السنين
الحب يا حبيبتي فردوسنا الامين

لكن هذا الفردوس ابعد منالا ـ وكل مواضعات الخوف والزيف ضاغطة ـ من البجعة السوداء والغراب الابيض .. فماذا يا ترى يفعل فارسنا ؟ ... هو مشوق للحب ومقدر لقيمته ولذلك فانه يلج كل الدروب عله يصل اليه ، ابدا لا يكل ولا ييأس ، فمعنى اليأس من العثور عليه ، ان يستسلم للهزيمة ، وللثرثرات التافهة على موائد الليل السادر ، وللصمت الراكد كالموت والرابض فوق وجه الحياة لا يريم . ان الحب هو خلاصه من كل هذا ، بل هو الخلاص من الاحزان الثقيلة الفادحة التي تولد فجأة وسط كل الضحكات . لذلك يحث الخطى نحوه .. يصطدم في الطريق بوجوهه الممسوخة ، وبالحبيبة التي تريد ان تعرف دوما ، نهاية الطريق ، فتملأه ضجرا ، وتعمق كل لحظة من احساسه بزيف حبها ...

تسألني رفيقتي ، ما اخر الطريق
وهل عرفت اوله

يرتمي في يأسه في احضان اشكاله الجديدة ، عله يصل عبرها الى صورته الحلوة المعطاء ...

ولننطلق مغامرين ضائعين في البحار العكرة
نمد جسمنا الجديب ، والضلوع المقفرة
في الغرف الجديدة المؤجرة
بين صدور اخر معتصرة

يتأكد عبر التجارب المريرة بعقم الدروب التي يسفح على قارعتها خضرة ايامه ، ولكنه ابدا يواصل السير فيها ، فلا غيرها يعرف ، ولا قادر هو على الاستسلام للصمت وللفشل المخزي المرير . فيقع دوما في وهاد التجارب العقيمة ...

ذكرت اننا كعاشقين عصريين ، يا رفيقتي
ذقنا الذي ذقناه
من قبل ان نشتهيه

ولذلك ما يلبث ، بعد تخبط طويل بين جدران هذه التجارب العقيمة ، ان يقع على بداية الطريق ... حينما يحس بأن الحائل دون خصوبة الحب ، والسبب في عقمة ، يبدأ من داخله هو ... من قلبه المرتجف الجهم الذي عاقر الاف الاحزان والمخاوف حتى كاد يفقد القدرة على الحب ..

اشقى ما مر بقلبي ان الايام الجهمة
جعلته يا سيدتي قلبا جهما
سلبته موهبة الحب
وانا لا اعرف كيف احبك
وباضلاعي هذا القلب (1)

وهذه المعرفة هي البداية الحقيقية لسلوك الدرب الصحيح الذي لا بد وان يفضي به بعيدا عن الحب العقيم ، والى قلب العاطفة البريئة الخالصة . فبداية ادراك اسباب العقم ، هي في الان نفسه بداية ادراك معالم الطريق الحقيقي الذي ينحت معالمه من ضرورة ازالة هذه الاسباب

(٦) التصوف ... طريقا للخلاص

الحقيقة التي تأكدت عبر الديوان كله عشرات المرات هي ان فارسنا يعيش في واقع جهم كئيب . الاحزان الكثيفة ، والاحلام المبعثرة ، والصمت الراكد ، والليل السادر ، والحب العقيم المستحيل ، والاغتراب الكئيب الذي يرتجف القلب دوما في صقيعه ، والمدينة المخيفة العاهرة . كلها تؤكد هذه الحقيقة وتثريها .. وعلى فارسنا ازاء كل هذا ان يوفر لنفسه الحياة التي في فيئها يمكنه ان يحتفظ بالانسان نظيفا في اعماقه . فاي طريق تراه سيسلك ؟ .. انا لا اريد من الديوان ان يقدم اجابة صريحة ، لا اطالبه بأن يقول ان هذا واقع كئيب ، وهذه هي الحيثيات ، ثم يشير باصبعه الى طريق الخلاص . ليست هذه وظيفة الفن . يكفيه ان يسجل كآبة الواقع بالصورة التي تثير في اعماق القارىء الرغبة في تخطي هذا الواقع الكئيب ، أو مجرد الاشمئزاز منه . وقد قدم لنا صلاح كل هذه الاوضاع كحالات من الضرورة تخطيها ، وكان هذا شيئا رائعا منه . ولكننا نلمس عبر الديوان ايضا رنة من الاسى الصوفي . ويبرق التصوف في ثناياه طريقا للخلاص ، بل انه يتبنى في بعض الاحيان وجهة النظر الصوفية في رؤيته للاسباب التي ولدت الجدب ...

حين فقدنا الرضا ..
بما يريد القضا ..
لم تنزل الامطار ..
لم تورق الاشجار ..
لم تلمع الاثمار
حين فقدنا الرضا

فيرى ان فقدان الرضا بالواقع كما هو كائن ، وعدم الاستسلام المخزي لمواضعاته مهما كانت نوعيتها ، هو الذي وهب الحياة هذا الوجه الشائه الجديب .. بل انه يرجع ذلك ايضا الى فقدان الايمان اليقيني العميق ... وانعدام ايمان العجائز الفطري العفوي التلقائي في اعماقنا ، هو المسئول عن هذا الجدب ، وهو الذي انجب كل ما في الواقع من اسى ..

حين فقدنا جوهر اليقين
تشوهت اجنة الحبالى في البطون
الشعر ينمو في مغاور العيون
والذقن معقود على الجبين
جيل من الشياطين
جيل من الشياطين

ومن هنا يحس الشاعر بعقم اي محاولة لتغيير هذا الوجه المجدب الكئيب ، او لبث الحرارة داخل عروقه الجليدية الشاحبة . ولا يجد سوى الموت خلاصا من اسار كآبته . فلا الرضا سهل ولا استعادة اليقين ممكنة .. وهذا الكون الموبوء ، ابدا لن يصلحه شيء ، ومن ثم يكون الموت هو وسيلة الانقاذ الباقية والوحيدة ..

تعالى الله ، هذا الكون موبوء ، ولا برء
ولو ينصفنا الرحمن عجل نحونا بالموت
تعالى الله ، هذا الكون ، لا يصله شيء
فأين الموت ، اين الموت ، اين الموت

خاصة واننا ، وبعد فقدان الرضا واليقين ، فقدنا في الان نفسه رضا الله ، الذي سلط علينا عذابات لا طاقة لنا بها والاما .. واستعادة هذا الرضا المفقود صعبة للغاية ، خاصة وان ما معنا من اقوات لا يستطيع ان يصمد لعذابات الرحلة القاسية ، ولن يلبث ان ينفد قبل نهاية الجولة الاولى ..

وهل يرضيك ان ادعوك يا ضيفي لمائدتي
فلا تلقى سوى جيفة
تعالى الله ، انت وهبتنا هذا العذاب وهذه الالام
لانك حينما ابصرتنا لم نحل في عينيك

لا الموت أقبل ، ولا كف الله عن عدم رضاه عنا ، في المقلاه ، تركنا نكتوي بشتى العذابات ، فماذا تراه مصيرنا ؟.. كل المآسي يمكن احتمالها ، الا ان ينسانا هكذا معلقين في حبال الصمت والامنيات ..

ألم اخلص بعد ، أم ترى نسيتني ؟
الويل لي ، نسيتني
نسيتني ...
نسيتني ...

لكنه ـ كما يقول البير كامو ـ معتصم دوما بالصمت . وهو ابدا لن يجيب .. ينسى دائما الطامعين في رحمته . فيزيد مآسيهم تكثيفا . فاذا كان الصمت جزءا من مأساة فارسنا ، فسيعانقه العجز والاستسلام والقدرية المريرة . وليست هذه الفلسفة بجديدة على صلاح عبد الصبور او غريبة (1) فهي وليدة غربته الميتة وعجزه الراعب المذل . خاصة بعد ان تيقن من عقم الدور الذي يمكن للكلمة ان تؤديه ، وميأسم الصمت تكويها ، تستدعي لها الذبول من أطراف العالم . وبعد ان فقد الصلة الحقيقية بالارض التي تسرب منها الدفء الى قلبه فنثر في الديوان الاول الاشراق والحياة . وقد جنت هذه الفلسفة على الديوان ، وانتقصت من فضائله . وهي تلوح عبر الديوان منذ اللحظة الاولى ، بدءا من الرنة العجزية الاستسلامية في بدايته (المفتتح) .. حتى هذا الاستخذاء المذل ، والرؤية الصوفية في اخر قصائده (مذكرات الصوفي

(1) الحس هنا اصداء لابيات الوركا .. مارياتا ، وكيف استطيع ان احبك بهذا القلب اذا لم يكن ملكي .

(1) لن اتحدث عن لا علمية هذه الفلسفة ، ولا عن مناهضتها للحياة . ولن اقول انها تباشير السقوط الحقيقية تلمح في كل الديوان . فهذه اشياء مفروغ منها كلما يقولون . وليس ضروريا التركيز عليها هنا ولا الان .

بشر الحافي) .. ولولا تغشي نغماتها في الديوان ككل ، لارتقى الديوان مكانة ممتازة بحق في افق الشعر المصري الحديث . ذلك لان صلاحا استطاع أن يقدم عبره نضوجا فنيا واضحا ، وهضما ذكيا للتراث الشعري العالمي وللثقافات المعاصرة .. لننتقل الان الى القضايا الفنية في الديوان .

(٧) أسلوب الشاعر .. والآبار التي منها ارتوى

الشاعر كما يقول شيللر ، ليس الامجرد اداة او وسط تعبر الطبيعة الخلاقة عن نفسها من خلاله . وصلاح عبد الصبور ، شاعر ومن ثم فان الواقع يعبر عن نفسه من خلاله ، ولكنه في الوقت نفسه انسان له موقف محدد من هذا الواقع ، وغير قادر على التخلي عن التنعمات او الامتيازات التي حصل عليها ، فهي مكسبه الوحيد الان ، وينعكس موقفه ذاك على شعره ، فنجد ان الرؤية الشعرية في الديوان تتأرجح بين المعالجة الشعرية لابعاد الواقع ، وهي النغمة المسيطرة ، والعجزية والاستسلام والرثاء الذاتي . وينعكس كل هذا على اسلوب الشاعر دون شك ، وعلى طريقة تناوله للقضايا وبنائه للتجربة الشعرية ورؤيته لها. وتبدو هذه المسألة واضحة عند دراسة طبيعة تركيب الصورة الشعرية عند صلاح عبد الصبور ، فالصورة ليست قالب الفكرة ولكنها ـ كما يقول كوزينوف ـ جسمها .

وفي (اقول لكم) حيث كان الشاعر واقعا في هاوية التجريد والتعميمات ، نجد ان الصورة الشعرية هي الاخرى ، فاقدة لشخصيتها وجانحة الى التسطح والتعميم ، بل أننا نعثر فيه على النثرية بشكل كبير وعلى الصور التي لا تنتمي للشعر ولا تعرف شيئا عن رهافته وقدرته على التركيز والتكثيف . كما نعثر فيه ايضا على الصور العقلانية والفاقدة الصلة بطزاجة الحياة وخصوبتها . اما في (احلام الفارس القديم) فان الصورة الشعرية تستعيد جزءا كبيرا من طزاجتها وارتباطها بالحياة . غير انها تحن في احيان نادرة الى نمط الصورة في (اقول لكم) ولكنها في نهاية الامر تميل الى منهج الكسندر بوب في صياغة الصور ، وبوب شاعر انيق التعبير يجهد نفسه كثيرا وراء الحرف حتى تصفو كلماته الى حد الحلاوة ، فتصبح فعلا كلمات خفيفة النغمة لرجل دنيوي يتحدث مع اصدقائه ـ كما تقول درو ـ . وهو يعمد كثيرا الى ان يهب ابياته ثراء ايقاعيا من خلال المماثلة والمعارضة الدقيقة بين اجزاء البيت او القصيدة ، وهي سمة اخذها عنه مالارمية وذهب بها الى ابعد طاقاتها . ويجب الانسى ان بوب كان قمة المدرسة الاوغسطية في الفن والتي توجه عنايتها للشكل دون المحتوى ، ومن هنا كان ولع تيوفيل جوتيه ـ امام مدرسة الفن للفن ـ بأشعاره وتركيزه عليها بشكل خاص . فقد كانت اشعاره من القمم الشامخة في الحلاوة والصياغة الفنية . ولقد استفاد شاعرنا من بوب بشكل كبير ، ونقل عنه منهجه في التناول الشعري ، وفي الصياغة المحكمة والشديدة التركيز . هذا فقط هو ما احتفظ به من بوب اذ انتقل في هذا الديوان من عقلانية بوب الى عاطفية براونج ، وبراونج على وجه التحديد . بكل ما في شعره من ايقاعات لغة الحديث المبعثرة في كل قصائده ، من خلال نغمات منفردة على جرس متغير ، وبكل ما في الحديث من تنقلات مفاجئة ، واسئلة وتقطيع في الافكار ، وكل ما يحمل الينا سرعة الصوت الطبيعي وتلقائيته . غير ان جنوح صلاح الى براونج في المرحلة الاخيرة لم يفقده بوب تماما ، فما زال محتفظا منه بخير ما فيه ... اعني التناقض الداخلي في البناء التركيبي للبيت الواحد مما يجعله زاخرا بالتفجر والحيوية . وكذلك القدرة على ترتيب المعطيات التي بين يديه ترتيبا شعريا .

ولان صلاحا هنا اكثر اقترابا من العالم العام عنه في (اقول لكم) برغم المنكا الذاتي في (احلام الفارس القديم) .. ولانه اكثر تعبيرا عن جوهر اللحظة الحضارية التي صدر عنها ، والتي تحدثنا عنها في مطلع هذه الدراسة . فانه يحاول ان يحقق التصاقا بالقارىء . ومن خلال محاولته لتحقيق الترابط العميق بينه وبين قارئه . الترابط النابع من التقائهما في الرؤية ، وليس من اتفاقهما على وعاء نغمي محدد يربط بينهما ، يقلل الى حد كبير من الرباط النغمي ، حتى تصبح الصلة كلها رؤيا خالصة . فبرغم انه هنا ـ كما في اغلب قصائد ديوانيه الاولين ـ يعتمد وحدة التفعيلة اطارا نغميا . الا ان الموسيقى هنا اكثر خفوتا مما في الديوان الاول وبالتالي اكثر عمقا . وجرس الكلمات هنا اقل نغمية ، وان كان اكثر ايحاء واعمق تجاوبا مع المعنى . فمن خلال لجوء صلاح الى الكلمات الشديدة البساطة والعارية من كل زخرف، والوثيقة الارتباط بلغة الحديث اليومية ، يحقق ترابطا اكثر عمقا بينه وبين قارئه من جهة ، وبينه وبين الموضوع الذي يتناوله من جهة اخرى.

وثمة ظاهرة اخرى في شعر صلاح عبد الصبور في هذا الديوان واضحة ، الا وهي جنوحه الى التكرار بالصورة التي تثري التجربة الشعرية وتعمق مع ميله الدائم الى الالفاظ البسيطة الواضحة باقترابه من القارىء .. والتكرار الذي اقصده واضح في الديوان في « نسيتني ص ٣٤ » و « عميقتان موتا .. غريقتان صمتا ص ٢٣ ، ٢٥ » و«يسلمون في فتور .. يودعون في فتور ص ٣٦ » اذ يساهم التكرار هنا في بلورة الصورة الحسية وتركيزها بالشكل الذي يحفرها في وجدان القارىء ويعمق دلالتها في اعماقه .. وكذلك في « ايهما احبه ص ٥٨ » حيث علامات الاستفهام المتتالية تنسج دروب حيرة الشاعر وتمزقه . وفي « الشمس رعتها ، والشمس الشمس اماتتها ص ٥٢ » وغير ذلك كثير.. غير ان التكرار في بعض الاحيان يقع بالقصيدة في وهاد النثرية ، كما حدث في النصف الاول من قصيدة (احلام الفارس القديم) حيث استمرأ الشاعر قدرته على الاتيان بصور متعددة وكثيرة يعبر خلالها عن توقه الى تحقيق علاقة عميقة وصادقة بينه وبين المحبوبة ، وقد يقال ان غاية التكرار كانت الافصاح عما وراء الحبيبة والعلاقة من رموز . الا ان هذا لا ينفي ابدا نثرية هذا الجزء من القصيدة ، ولا حنينه الى اسلوب (اقول لكم) في التعبير .. اعني العقلانية والنثرية .

كل هذا لا يمس شاعرية صلاح عبد الصبور ، ولا ينتقص منها تكرار الاخطاء العروضية في الديوان . والتي يرجع اغلبها الى معرفة صلاح بشكل ما هو مباح عروضيا الى الحد الذي جعله يستبيح كثيرا مما هو غير مباح . اذ استطاع برغم كل هذه الهنات ان يكون اكثر الشعراء اقترابا من الواقع ، واعمقهم تعبيرا عنه . وان يقدم عبر الديوان تشوفنا الى الشاعر الذي يحمل عن سيزيف الصخرة ، ويفجر عبر مأساته الخاصة وهمومه الذاتية كل مآسينا وكل همومنا .

القاهرة — صبري حافظ

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر